نظرات فى النفس والحياة

— ١٢ —

نظرات لورد بيكون

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الانجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارةً يزعمون كما قرأت في مقال إنه ادوارد السادس مع أنّ بين ميلادهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يستطبه أبوه السير نيكولاس بيكون الى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذي ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس في حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون انه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمي ولكن شكسبير كان مكثراً من العمل ويكون كان مكثراً من العمل ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معاً مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديباً فانه كان يعد البحث العلمي العملي أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج في يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهي حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعي على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملي العلمي وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء في أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال وكتاب اطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنري السابع وكتاب (نوفام أورجانوم) أي الأداة الجديدة في العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ، وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله في البرلمان وفي المحاكم في سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشيء من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر في عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع

مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن في قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقل من عظمة عبقريته كشاعر ولكنها هي والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل يكون وشكسبير في بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو تكاية زملائه وهذا لا ينطبق على بيكون كما أن شكسبير كان في بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضاً يستبعد من بيكون الذي كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وان كان أكبرهم فنسب قصصه الى غيره . أما بحوثه العلمية التي كان يقضي بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر ولا غرابة في ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة في العلم والوصول من الشواهد الخاصة الى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأً عامًّا واشترطها في البحث العلمي العملي في كتابه عن العلم والتعلم . ولا شك أن عقله كان أكبر من قلبه ولا داعي للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاَّ أنه من الضروري أن نقول إنه جوكم لقبوله الرشوة في القضاء واعترف بذلك قائلاً إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . وقد ندم على ما فعل وقد عومل بالرفق في محاكمته ثمَّ ما لبث أن أطلق صراحه وأسقطت عنه الغرامة التي فرضت عليه . وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية : —

(١) الحق كضوء النهار لا يزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم وتزجات نفوسهم اذا كان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذا كان مشوباً بشيء من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مُدرَك . وضوء هذا الحق الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع في المراقص المُقنَّعة ليلاً يخفي تفاصيل ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين تباهيها المستعار ويخفي بعض ما بها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شيء من الباطل كي يقلل من نور الحق فلا يتم على أكاذيب الحياة وهي كثيرة ، وهل من شك في أنك اذا سلبت من انسان كل ما في عقله من آراء لا أساس لها من الحق ، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التي تعلقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه

والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام في الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائفة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الابريزَ كي يزيده صلابة ويجعله أصلح ، كنقود في المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

(٢) جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما في الموت وهو تلف الجسم كله بما في تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم ؛ وهو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولاً . فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم . وليس في النفس احساس قوي يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والاحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الاشفاق والرحمة وهي أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت وحتى الملل من الأمر المعتاد المكرر قد يتغلب على الخوف من الموت فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

(٣) من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدي ذلك الى الاجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والاجرام قول ابليس إني أريد أن أصعد الى عرش الله . أليس مما هو أشد كفراً وإجراماً أن يريد المرء ازالة الله من علىٰ عرشه كي يشركه في قسوة الانسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

(٤) إن من أعظم العظمة التي هي في منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبني قول سنكا الفيلسوف الروماني في هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى بالمطمئن الرب) .

(٥) إن الحزن الذي تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والايمان كالثوب القاتم اللون

المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو أملأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التي تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتي تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

(٦) مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز في الأمر الذي لجأ اليه المرائي إذ لولا العجز فيه ما لجأ الى الرياء .

(٧) من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فاذا لجأوا الى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون في مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرني قول أبي تمام الطائي :

مكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعظم لدبير أن لا تُسمى أريبا

(٨) الرجل الذي يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول ما لا يعرف ويدّعي انه شاهد ما لم يشاهد وحضر ما لم يحضر . والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم ؛ والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . ومن أغرى أهل الفضول بمعرفة سر ما يكتم في صمته . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وان نمقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو الى استتامة أعدائه والى مباغتة مناضليه وانه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا اضطره الأمر إذ لو أعلن أمره اضطر الى المضي فيه أو الى إظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم لكن المبالغة في الصمت والكتمان قد تغري الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه في أمره فيفقد ثقة بعض الناس . ولعلّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم .

(٩) يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء في تنمية روح المنافسة فينمو التحاسد والتباغض في نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة القريبة ولا ينظرون الى ما يمكنونه في النفوس البشرية

من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها في الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وانما يلجأون الى هذه الخطة لأنها في نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال .

(١٠) في النفوس صفة لؤم ذائعة وهي أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والحمقان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلا إذا صادف نفساً كبيرة تجمل نقصها زائداً في شرفها وشفيها ولمحها، إذ يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم اذا خشوا عاقبته. والحسد كالوباء قل خشي الوباء كثيراً وضعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد في أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفي أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً والرأي السديد خرقاً والعمل الصادق عملاً كاذباً في دعوى ذوي الحسد الذين يرون في انقلاب الأمور وحقائقها إخفاء لحسدهم ونقصهم وهم مثل الزارع الذي يزرع الشوك والحسك في الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

(١١) قال ديموستنيس الخطيب الأثيني أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة في الحركة والعمل وكذلك ألزم صفات النجاح في الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردد في شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أحط من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهي من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

(١٢) قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدة صلاحه لا يصلح لمباشرة أي عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هي أن النجاح في الحياة قد يتطلب — إلا إذا جاء عفواً — شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فعله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك

الفضل ولكنه موجود يخفي حتى على بعض من يتنكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ونوع التقليل منه، وإما جهلاً بأن الغباوة لا تجافي المكر والاحتيال. وإن المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبي كي يجعله عوضاً عما حُرِمَه من الذكاء والفكر

(١٣) قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الاسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور في أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك) ان الاسراف في أمر من الأمور يقتضي الاقتصاد أو التقتير في أمور أخرى — وهذا يذكرني قول معاوية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: — ما رأيت إسرافاً قطّ إلاّ والى جنبه حق مُضيَّع.

(١٤) سوء الظن يكثر في ظلام العقل كالخفافيش تكثر في الظلام واذا عظم سوء الظن عطّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا الى الظلم والغيرة والتردد والحزن والى فقد الأصدقاء. واذا كان سيء الظن جباناً هلوعاً يتملكه الذعر والرعب اذا فكر فيما يسيء به الظن فإن رعبه قد يدفعه الى عدم التثبت ظنّاً انه اذا تعجّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقي لا خطر منه، بل هو لازم اذا لم ينزله المرء في نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحق لمعاقبة من يسيء به الظن وكذلك الذي يساء به الظن وهو بريء أو يخشى ان يساء به الظن ينبغي أن لا يظهر في ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاّ أُسيء به الظن ريبة وان كان بريئاً كما قال الطغرائي الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) في بيته الآتي:

تخشى بسالتُهُ صَفائح عِمْدِهِ وسَمامُهُ إن الهَيُوبَ مُريب

(١٥) إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به، وقد تحمود الصراحة وتبطل الوساوس التي تنمو بسبب سوء ظنك به، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً — وهذا يذكرني قول البحتري

أدعُ الصاحب لا أعذله لا يُسمّى بعقوق فيُعَقّ

(١٦) ينبغي لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخرية أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة

تبعث الشك وسوء الظن به ومقاصده حتى يجعل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخرية بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لا سخرية به فيحمل الناس معناه على ما يدر منه في أوقات أخرى من السخر (وهذا يذكرني قول لورد تشسترفيلد : ينبغي لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مصلتاً لها وأن يتخذها عدة للدفاع اذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة في نظر لورد يكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والاجلال .

(١٧) كل من كان في نفسه شيء يدعو الى احتقاره مُزَوَّدٌ بدافع نفسي يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذي يدعو الى الاعجاب أو بالظهور بين الناس اما بالفضل واما بالشر كي يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الاعجاب بفضله فكم من هاهة أو نقيصة في حياة المرء حَثَّتْ على العظمة أو على الاجرام . واذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد

(١٨) المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العريضة العظيمة النادرة لأن الحياة اليومية أحوج الى الأولى كما انها أحوج الى النقود القليلة القيمة في التعامل اليومي — ولأنها أقرب الى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد .

(١٩) أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحي العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب فنّا أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله .

(٢٠) بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيَّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فلامح الوجه قد لا تدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهرة في إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت إنهم يعرفون

أكثر مما يريدون أن يقولوا وبعضهم يوهم ذلك باشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل — (وهذا يذكرني قول شيرر الناقد الفرنسي: ان بعض الناس كالمنازل الضيقة التي تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسي البارز فيحسب الرائي انها منازل كبيرة وهي صغيرة جداً).

(٢١) بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذي يريد أن يقنع الناس أنه غني كي يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكي يعود الى الكسب والى الارتزاق. وهؤلاء اذا عنّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأي فيها.

(٢٢) قد يكون الرجل ذا ثروة محبًّا لنفسه ومع ذلك يكون في حاجة شديدة الى صديق فليست الحاجة الى المصادقة والمودّة من سلامة الطويّة وطيب القلب وإنما هي ضرورة كضرورة من يأخذ الدّواء كي يجري به المرارة في جسمه ويُدِرّها. وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم — ولعلّ هذا هو السبب في غيظ ذوي الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلّه سبب من أسبابه — وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلاّ بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلاّ بالشكوى لمشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرني قول الشاعر العربي.

ولا بدّ من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

(٢٣) تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأي وتنقده ويستثنى من ذلك الحديث الذي لا يراد به هذا الأمر بل تراد به النجعة وتعطيل الفكر والمباهرة.

(٢٤) اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الروماني في وصف أمثال هذه البيئة المختلة:

بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون في أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فان رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور في نظامها وحياتها التي تحياها ولاسيما اذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كي يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم وإذا كثر فيها مثل هذه الأمة الذين يسرفون في الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهي أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

(٢٥) مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان فالذي يحاول منعها اذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذي يجعل جروحه تدمي في داخل جسمه بدل أن تدمي على ظاهره وعلى جلده فيعالجها وهي إذا دميت في داخل جسمه سببت التقيح والتسمم في بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولا يتنفس عنها بعض التنفس بالعمل أو القول أوالكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

(٢٦) إذا لم تجد النفس منفذاً الى النجاح والتبريز في الأمور العظيمة فلا تتنعش إلاّ بالنجاح والتبريز في الأمور الصغيرة وقلما تنتعش وتطمئن الى السكينة التامة الخالية من أي مظهر من مظاهر النجاح فانها حينئذٍ تنطوي على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدي الى النجاح والتبريز في أي أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

(٢٧) أشد الناس إثرة وأنانية لا يتورعون من احراق مدينة كي يقلوا بيضة أي لا يتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوي الاثرة والأنانية لأن مطالب اثرتهم والرغبة في الفوز بها قد تدعوهم الى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس اليهم الناس ويثقون بهم وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه اثرتهم إلاّ اذا كان صاحب الاثرة أحمق لا يعرف كيف يستدني مأربها بملاطفة الناس واظهار غير ما يبطن .

(٢٨) خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب

ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التي تعودوها ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه في النفوس طباع متناقضة ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه في بعض الأحايين فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأي أو عقيدة ويعطي المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لا يفعل بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الانسان آلة مسيَّرة يديرها دولب العادة كما تدار الآلة في المصنع .

(٢٩) الانسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً عالماً فكأنه مدحٌ عقيم والانسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثل هذا الانسان الذي نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة في سيرها أو عجلات الآلة ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونه أو يسيئون له الظنية ومثل هذا لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون نقصه فيهما معيناً له على النجاح وبعكس ذلك تجد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا في القول والعمل .

(٣٠) المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل انسان بما يود ذلك الانسان أن يمدح به وبما يمدح به نفسه والشرير هو الذي يمدح انساناً بما يضره ويؤذيه واذا مدحت من كان في مثل فضلك أوجبت لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلا أنكر الناس فضلك بالقياس .

(٣١) بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذي يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادي انساناً أخفى وغيَّر اسمه فينادي باسمه على حين غفلة منه أو يعرض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة . وقد يصح رأي هذا الباحث الاَّ إذا كان جليسه هيوباً فيصدق فيه قول الطغرائي (إنَّ الهيوب مريب)

(٣٢) ينبغي للقاضي أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كي تكون أحبولة صيد وفخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(البحث بقية) ع . ش .

قصة

أسرف !...

للكاتب الفرنسي «جي دي موباسان»

ترجمة الآنسة : نعمت حسني

استيقظ السيد « سافال » ويسميه في (مانت) « الأب سافال » . . . من نومه في الصباح المبكر . ثم ارتدى جلباباً يستر به ثياب النوم . وكان اليوم من أيام الخريف الحزينة . . فقد أظلمت السماء وتهاطلت الأمطار . . وأخذت أوراق الشجر تتساقط على مهل . . وكأنها أمطار أخرى ، أكثر غزارة وأكثر تؤدة . ولم يكن السيد سافال ، مرحاً في ذلك اليوم .. فهو يقطع المسافة ، فيما بين النافذة والمدفأة ، ذهاباً وإياباً.

الحياة تتخللها أيام عابسة مظلمة . وسوف تكون من الآن فصاعداً ، سلسلة أيام مظلمة عند سافال .. فقد بلغ الثانية والستين من عمره ولم يتزوج بعد .. فهو فتى عجوز . . وليس من يحيط به ! يا لله ! محزن ولا شك ، أن يموت الإنسان هكذا ، وحيداً . . وليس من يحبه أو يحنو عليه !

وفكر سافال ، في حياته العارية الجوفاء التافهة . وتذكر الماضي القديم . . تذكر أيام طفولته ، والبيت الذي كان يضم الأسرة . . والمكتبة التي تعلم فيها . . . ثم التخرج فيها . . ودراسة القانون في باريس . ثم مرض أبيه ، الذي أعقبه الموت .

إنه أقام بعد ذلك مع والدته . . وعاش الاثنان معاً ، في هدوء وسكون . . الشاب والمرأة العجوز . . ولا يطلبان شيئاً من لذائذ الحياة ونعيمها ، غير ما قدر لهما . ولكن ماتت أمه أيضاً ، وتركته وحيداً . فكم هي حزينة هذه الحياة !

وهكذا عاش سافال وحيداً . والآن ، سوف يموت بدوره في وقت قريب . . سوف يختفي من هذا الوجود ، وتنتهي كل شيء . . فلا سيد برل سافال ، فوق وجه الأرض .